

الصمت والزيف ...

(١)

ذلك الصباح ، حين رأى صور المشوّهين في وجوههم ، وظهورهم ، وبطونهم ، ثم قرأ ما صرحوا به عن الوان التهديد والتعذيب والاهانة التي اخضعوا لها ، اقترن بالحزن والمرارة اللذين عاناها طوال تلك الايام السوداء ، غضب احمر احسنه ضيقا في الصدر كاد يخنق فيه الانفاس ، وارتعاشا في الاطراف وتمتمة مذهولة ..

وحين اطل ، بعد ساعة ، خلال جمهور محتشد ، على تلك الجثث الثلاث ، المحطمة الجماجم والمفقوءة العيون ، اصيب بغثيان لم يستطع ان يدافعه الا بالتعجيل في العودة الى المنزل ، والارتقاء فوق السرير في دوار شديد كاد يفقد فيه الوعي ..

مساء ذلك اليوم ، فاجأ نفسه وقصد التزم طوال ساعات النهار صمتا عجيبا لم يخرقه الا باجابات مقتضبة على اسئلة اولاده ، حتى لا يظنوا انه اصيب بالبكم .. ثم لازمه الصمت ، او لازم الصمت ، اياما ..

اصبح يحسّ انه ، اي الصمت ، قد غدا حاجة ملحة ، بل لعله ان يكون الضرورة الوحيدة التي يشعر بها ، ولا بدّ ان يشعر بمثلها كل كاتب يؤرقه الا تكون اعظم همومه واشواقه جزءا من هموم شعبه واشواقه ..

لم يحس بحاجة الى الصمت مثل حاجته اليه في اعقاب تلك الاحداث ، لا سيما حين اخذ بعض محرري الصحف يتصلون به لیسألوه : كيف نبني لبنان الجديد ؟ كيف تتصور لبنان المستقبل ؟ كيف وكيف ..

يسألونه عبر التلفون ، ويريدون في الحال جوابا مقتضيا في بضعة اسطر ، في سطرين .. وعلى الفور ! يا آلهي ! ما اشدّ ما تمتهن الكلمة ! ورحمك ايها الصمت ، وحنانيك ..

(٢)

كان يعتقد انهم كثيرون ، اولئك الذين عانوا ما عانى من مشاعر الالم والحزن والغضب والمرارة .. والغثيان !

كثيرون هم اولئك الذين تابعوا احداث العنف الفاشي والكرهية المجرمة والمجازر الدموية ، وحوادث الخطف والتعذيب والتشويه ، واعمال التدمير والتخريب والقنص ..

.. وتابعوا تصريحات زعماء الميليشيات الذين كانوا يمجّدون الثورة الفلسطينية ، فيما كان زبانيتهم يخوضون في تقتيل رجال المقاومة الفلسطينية ..

.. وتابعوا محترفي السياسة التقليديين الذين كانوا يبدّلون مواقفهم كما يبدلون احذيتهم اللماعة .. ويعقدون التحالفات المفاجئة من فوق عداوات تاريخية طويلة ..

.. وتابعوا مواقف الطامحين السياسيين الجدد ، اولئك الذين لا يظهرون على الناس رافضين الا في الازمات .. ليظل الناس يذكرونهم عند الانتخابات ..

.. وتابعوا وسائل الاعلام الصحفية : تدبذب بعضها في الانحيازات ، وتراجعها عند تراجع المبيعات ، والعودة الى سياسة « التوازن » التي تسمى ليبرالية .. وغوغائية صحف اخرى ، وصمت صحف غيرها بحجة الحياد ، وسمود صحف قليلة ، واحدة او اثنتين كانتا تحاولان ان تكونا ضمير الحركة الوطنية والتقدمية ..

.. ثم تابعوا حملات التهذئة والتلطيف ومنتاريس الزهور والحلويات التي اعقبت صمت الرصاص والانفجارات .. زهور هشّة تلقى على الجراح الفاغرة ، فتتلوث بدم هذه الجراح ، من غير ان تبلغ حد البلسمة ..

.. وتابعوا ، بصبر طويل ، محاولات تشكيل الحكومة ، تلك التي لا تولد قابلة للحياة الا اذا جمعت بين الاعداء ، ووفقت بين الخصوم الذين ينبغي ان يتناسوا

ما حدث ، ويتصافحوا من فوق الضحايا والدماء ، ويتعانقوا ويتبادلوا القبلات .. هكذا تسدّ الفجوات ، وتراب الصدوع بتلفيق التسويات واجراء المصالحات المنافقة ..
ولم لا ؟ اليس السياسة هي « فلسفة الممكن » ؟ ..
ويتساءل الناس : حتى ولو انحدر هذا الممكن السي
درك التمهّر والدعارة في الفكر والمسلك ؟

(٣)

وتابع الناس تحركات « المثقفين » الحيايين التي وصلت متأخرة ..

وكان المثقفون الملتزمون قد « سجلوا موقفهم » ببيانات ومبادرات كتابية فردية دلّت على وعيهم لدورهم ومسؤوليتهم ، وان كانوا قد تألموا لمبادرة مسؤول عن مؤسسة ثقافية ، اصدر ، من غير استشارة رفاقه ، بياناً حياً ملتبساً لا يعبر عن خط المؤسسة التي ينتمي إليها !

اما « الحيايون » ، فقد عقدوا عدة اجتماعات استدرائية اتفقوا فيها على اصدار بيان « يعالج الامور من جذورها » ، ولكنهم اختلفوا على هذه الجذور ، فنام البيان .. حتى كتابة هذه السطور .. ومن الافضل ان يظلّ نائماً ، حتى لا يخرج بياناً ملفقاً .. كالحكومة المنتظرة !

الا ان يكون مفهوم الثقافة والمثقفين قد تطور في لبنان بحيث اصبح هو ايضا « سياسة الممكن » !

(٤)

مزيّفون نحن ، في معظم افكارنا ، وفي معظم مواقفنا ...

وغير صادقين نحن ، غالباً ، لا مع الآخرين ولا مع انفسنا ...

ومفتقدون نحن الاخلاص والبراءة في التحرك والتعامل ...

وجميع الازمات التي نواجهها ، على كل صعيد ، نعالجها بالتزييف والنفاق والرياء ، لاننا نهيها جميعاً ، بالغة ما بلغت من الخطورة والخطر على حياتنا وحياة الاجيال التالية ، بالمصالحة الكاذبة ، والحلول المنافقة ، والتسويات المرائية .. ومن الطبيعي ، عند اول هبة ربح ، ان تنهار المصالحات والحلول والتسويات ...

(٥)

كان ، في اثناء المحنة ، قد شارك في بعض المؤتمرات ، وحضر عدداً من اللقاءات ، وعقد مع اصدقاء له ورفاق

كثيراً من الاجتماعات ، واسهم في اعداد بعض البيانات .. ولكنه يدرك الآن ، اكثر من اي وقت مضى ، ان المؤتمرات واللقاءات والاجتماعات والبيانات قد تكفي « لتسجيل المواقف » والتعبئة العاجلة ، ولكنها ، في حياة الكاتب الملتزم ، لا يمكن ان تفني عن الاثر الادبي الفني الذي يبقى ، هو وحده ، الشهادة المعبرة عن وجدان الكاتب والملقفي في آن واحد .

(٦)

حين رفض ان يجيب على اسئلة الصحفيين ، كان قد صمّم على ان يتابع الصمت ، ذاك الذي لازمه اياماً في اثناء المحنة وفي أعقابها ..

وكان واعياً انه لا يمكن ان يكون صمت المحايد ، لان هذا الصمت حياي .. وهو لم يكن يوماً بالمحايد . انه صمت المنحاز ، صمت الملتزم .

وكان واعياً انه ربما كان من مصائب الكاتب العربي انه لا يحسن الكلام العميق ، لانه لا يحسن الصمت العميق ، ذلك المتوغل في احشاء الحقيقة ، والذي وحده ، يهيء للكلمة ان تؤدي دورها ، كالرصاصه والبندقية ..

واذن ، فلماذا لا يصمم ، الآن ، على الابتعاد عن كل ضجيج سطحي ، لينصرف الى عمل صامت سيتطلب في تقديره فترة من الزمن قد تطول .. عمل روائي كبير يكون شهادة ووثيقة للمجتمع اللبناني المعاصر ، هذا الذي يقوم كثير من دعائمه على التزييف والكذب والتشويه . والذي تطمح اجياله الجديدة الى اقامته على دعائم اخرى من الصدق والبراءة والاخلاص ..

(٧)

هذا الصمت العميق ، هو الذي سيحاول ان يلتزمه في الفترة القادمة ، منظوياً على الكتب والمراجع ، منتشرراً في داخل الحقائق والوقائع ، مدققاً في اختيار نماذجه البشيرة ، المزيفة المنافقة ، والمصارعة من اجل مجتمع صحي سليم .

واذن ، فهو يحاول منذ الآن ان يتفرغ لكتابة الرواية - الشهادة - الوثيقة ، متيقناً من ان هناك رفاقاً له ، من الكتاب اللبنانيين الملتزمين ، سيعملون هم ايضا ، كل في ميدانه ، لرسم صورة صادقة ، واقعية ومستقبلية في آن ، عن لبنان الذي لا يستطيع الا ان ينفذ عنه ، مع الاجيال الجديدة الواعية ، رماد الزيف والتشويه ، لينبعث وطناً حقيقياً يشارك في بناء حضارة عربية جديدة .

من اجل ذلك ، رحماك ايها الصمت العميق ، وحنانيك ...

بيروت